غرائب الطبيعة وعجائب المخلوقات

مشهد من مشاهد النزاع بين الانسان والحيوان

فصل بليغ من هدية المقتطف السنوية ١٩٣١

الأُركا اشرس انواع الدلفين واشدها خطراً ولذلك لُقّب بالقتّال طولهُ عشرون قدماً فاكثر ووطنهُ البحار الكبيرة من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب يسرح ويمرح فيها ويصطاد ما يشاء من اسماكها كانهُ الاسد بين الوحوش. وهو من الحيوانات القليلة كثرة الحيتان الكبيرة يلد مثلها ويرضع صغارهُ . وصفهُ كاتب انكليزي في مجلة ندزور وصفاً بديعاً فاقتطفنا منهُ الفصل التالي :

لطم النسيم وجه الماء فتغضّن وتقلّبت الأُركا فيهِ بكمالاً لايهمها وطن ولا عطّن وفلوها يسبح الى جانبها وهو يدنو منها حتى يمسها فيطمئن بالهُ وكان لسان حاله يقول اتسعت البحار او ضاقت وكثرت الاعداء او قلّت فمن لاذ بامهِ لاخوف عليهِ . وهي ارأم ام في الوجود فلا تبتعد عنهُ بل تضمهُ اليها من حين الى حين بزعنفتها او تدور حولهُ وتلمسهُ بشفتيها حتى يطمئن بالهُ ويسكن بلبالهُ

وهي معروفة مشهورة يعرفها البحّارة ولو رأوها عن بُعد بظهرها الاسود وبطنها الابيض ولاسيما بالزعنفة الكبيرة القائمة فوق ظهرها كالاكمة فان ارتفاعها خمس اقدام وبالخطين الابيضين على خاصرتيها وكلّ ذلك من العلامات المميزة لها المحذّرة منها . لا تخاف شر احد الا شر ابن عمها الحوت الحيار المعروف بالسنبر. اما الحوت الكبير الذي تؤخذ منهُ العظام فتهجم عليهِ وتقتلهُ ولو كان اطول منها اربعة اضعاف كما يهجم الاسد على الفيل . ولا تخاف شرّ الانسان لانها لم تختبر قوتهُ فانها قليلة الشحم ولذلك لم يحفل الناس باصطيادها . والقرش المعروف بكلب البحر قد يدانيها في كبر جسمهِ او يفوقها ولكنهُ لايدانيها في شراستها وحيلها. ولذلك كنت ترى هذه الاركا تسير الهوينا لا تحسب لاحد حساباً. الصخور عن يمينها والبحر الواسع عن يسارها ولا يهمها الا ابنها وطعامها اما ابنها فلا يفارقها ولا تغفل عينها عنهُ واما طعامها فالماء شفاف امامها فتراهُ ولو كان في قاع البحر . ولم يكن الا لجة بصر حتى غاصت في اعماق اللجج ثم عادت باخطبوطة كبيرة حملها جهلها على الخروج من مخبإها بين الصخور فلم تكد الاركا تلمحها حتى غاصت وراءها والتقمتها . ومدت الاخطبوطة ذراعها لتمسك بشفتي

الاركا لعلمها تنجو من الموت العاجل ولكن لا نجاة اذا حلّ الاجل بلغتها الاركا لقمة سائغة وعادت الى وجه الماء فالتقت بابنها وكان نازلاً في اثرها لكنهُ لم يستطع ان يسرع سرعتها وقد دلتهُ سليقتهُ على ان البقاء حيث كان وامهُ ليست معه لا تؤمن عواقبهُ لان الاعداء له بالمرصاد

لم تكن تلك الاخطبوطة على كبرها الاّ لقمة في فم الاركا لكنها تلفظت بها وزادت شهوتها للطعام فجعلت تجول مفتشة عنه ولم يكن الاّ قليل حتى تغير لون الماء من الازرق الى الاخضر الزبرجدي دلالة على وجود مرتفع في البحر تصل اليه اشعة الشمس وكان على هذا المرتفع ورنك جناحاه كجناحي الخفاش وذنبه كالسوط الكبير فنظر واذا الاركا فوقه على سطح الماء فاوجس شرًّا ونزل على المرتفع باسرع من لمح البصر ليغوص في لجة الماء لكن الاركا رأته وغاصت وراءه في خط مستقيم كأنها صاعقة نزلت من السماء فحاد من طريقها ووثب الى الاعلى وثبة مريعة فعلا فوق الماء وكاد يطير في الهواء وحجب الشمس عن عيني ابن الاركا لكن الوثبة والطيرة لم تدوما الاّ لحظة من الزمان فلم يكد يرجع الى وجه الماء حتى كانت الاركا تحته فنفرت فاها واستلقته فحابط وصارع حتى غلى الماء بجهاده ولكن حُسم الاجل والمصير البحر بالنجيع. والورنك من الحيوانات الكبيرة الدسمة فشبعت الاركا منه وزادت فضلاته فغاصت الى قاع البحر طعاماً للخشاش التي تلتقط فتات غيرها كالسراطين ونحوها. واقامت الاركا نصف ساعة تملوءة الخواصر ترضع ابنها وتضمه الى صدرها وتهضم طعامها. ثم سلوت الهوينا الى ان دنت من سلسلة من الصخور الشاهقة وهي جزيرة قريبة من الشاطىء ولم تكن تغفل عن رؤية ما حولها ومحتها فرأت صيدجاً يسبح في قلب البحر على هينته وكان من اكبر انواع الصيدج طوله من رأسه الى ذنبه ست اقدام وقطره اكثر من قدم وله عشر اذرع طول كل ذراع منها ست اقدام وكله رمادي اللون الى الصفرة مرقط برقط سنجابية وكان يسير القهقرى يمتص الماء ثم يقذفه من فيه فيرجع الى الوراء بردّ الفعل

ولم تكن الاركا قد جاعت بعد اكلها للورنك ولكن جسم الصيدج الصقيل يفتح القابلية ويزيد الشهية فقزّت اولاً ثم غاصت في الماء والتقت الصيدج فرأها قاصدة اليه فضم اذرعه الى صدره حتى لا تبقه في سيره والتفت الماء بعنف شديد فخرج من فيه كالطريد. ولم يكتفِ بذلك بل لجأ الى سلاحه الفطري وهو سائل اسود يقذفه في الماء فيسودّ كالمداد ويخفيه عن الانظار. فعل ذلك وركض الى نقرة صخر في قاع البحر ليتحصّن بها. اما الاركا فلم تحتل بهذا السواد بل استمرّت في غوصها حتى وصلت اليه فلم تجد الصيدج فيه فجعلت تدور بمنةً ويسرةً تفتح فاها وتلتقه لعلها تعثر به فلم تجد شيئاً واخيراً خرجت من تلك الظلمة المدلهمة والتفتت الى ما فوقها فرأت منظراً جعلها ترجع الى سطح الماء

باسرع من لمح البصر. فان ابنها لحق بها لما غاصت في الماء حتى اذا وصل الى السائل الاسود ارتاع منهُ وعاد ادراجهُ وجعل يسبح على غير هدًى فرأى امامهُ فرشاً والفرش اي كلب البحر يخشى شر الاركا ويهرب منها فلما رأى ابنها وحيداً اشكل عليهِ امره وخاف ان يتعرض لهُ بسوء لئلا تسرع امهُ اليهِ وتوقع بهِ ولكنهُ كان جائعاً والجوع كافر فهجم عليهِ وقلب على جنبهِ لانهُ لا يستطيع ان يتناول فريستهُ الاَّ كذلك ورأى الولد شدقاً مفغوراً امامهُ كالهاوية وأسناناً كصفوف الحناجر فازدادت فراستهُ وايقن بالهلكة وجعل يسبح في دائرة حول المكان الذي غاصت فيهِ امهُ وجرى الفرش وراءهُ يطاردهُ ويضطر كلما دنا منهُ ان يقلب على جنبهِ لكي يتناوله بفمهِ فيهرب الولد منهُ . وكان الفرش كبيراً اكبر من الاركا يبلغ طولهُ ٢٥ قدماً ولكن الاركا اقوى منهُ واشرس فلما رأى انها درت بهِ وصعدت اليهِ اركن الى الفرار وقبل ان يبعد عنها خمسين متراً ادركتهُ فرأى حينئذٍ ان الفرار لا يجديهِ نفعاً فدار اليها وغاص تحتها وأعمل فيها انيابهُ وكانت هي قد دارت ايضاً فلم يقبض الاَّ على قطعة صغيرة من لحمها لكنهُ ألمَّها وزاد غيظها وحردها فجلدت الماء جلدة اطارت الزبد الى اعلى السماء وقبضت عليهِ عند قاعدة ذنبهِ وحينئذٍ ابتدأ الصراع والجلاد لكن الدائرة كانت قد دارت عليهِ وما هي الاَّ غمرات الموت تلجىء صاحبها الى الجهاد الاخير فزفت الاركا جسمهُ تمزيقاً الى ان غاص في الماء شلواً فاقد الحياة ثم ضمت ولدها الى صدرها وسكنت روعهُ وأرضعتهُ وسارت الى الخليج الضيق الذي بين الجزائر والشاطىء لعلها تجد فيهِ بديلاً للصيد الذي اضاعتهُ

وكانت الريح نسيماً لطيفاً وكان في الخليج زورق صغير بشراع واحد وفيهِ راكبان رجل اسمهُ غاردنر وكلبهُ . وعلى جانبي الخليج صخور وتخاريب فلا يأمن زورق صغير السير فيهِ الاَّ اذا كان البحر رهواً لكن صاحب القارب كان بحاراً ماهراً وكان يعرف ان بين سفينتهِ التي تركها والمرفأ الذي يقصدهُ اخواناً كثيرة يستطيع ان يلجأ اليها اذا عصفت العواصف فجأة وكان خبيراً بتقلب الرياح كأنهُ طبيب يحس نبضها لكنهُ كان يجهل طبائع الحيتان فلما رأى الاركا وظهرها لم يعرف منزلتها والاَّ لهرب من وجهها حالاً لكنهُ جهل امرها فجعل يدنو منها ليعلم ما هي حتى اذا صار على ثمانين متراً منها غرتهُ نفسهُ باطلاق الرصاص عليها ولم يخطر لهُ ان رصاصهُ يفور في دهنها ولا يضرُّها واذا اصاب منها مقتلاً وقتلها غرقت في البحر حالاً فلم يستفد منها شيئاً . لكن الغرور يلقي بصاحبهِ في المهالك فاحتطف بندقيتهُ وسددها الى خاصرتها حيث ظن انهُ يصيب قلبها واطلق الرصاص وجعل كلبهُ ينبح عليها فلم تبأ بهِ ولا بكلبهِ في اول الامر ولكنها شعرت ان ابنها اضطرب وأبعد

عن صدرها وجعل يخبط فأخذت تربطهُ بزعنفتها لتسكن روعهُ ورأى غاردنر ذلك فأدرك انهُ اصاب ابنها وندم على ما فعل ولات ساعة مندم ولو علم ان لها ولداً لما اطلق الرصاص عليها ولا على ولدها . ثم رأى ان الولد لا يزال يخبط فحسب ان جرحهُ عميت فأراد ان يجهز عليهِ لكي يختصهُ من الم النزع فأطلق عليهِ رصاصة ثانية كانت القاضية . وقبل ان يسكت الصدى سكن الولد ثم اخذ يغوص في الماء وجعلت امهُ تدور حوله الى ان تحققت انهُ فارق الحياة فالتفتت الى القارب وعرفت من اين جاءتها هذه البلية وأدرك غاردنر حرج الموقف فأدار قاربهُ ليهرب بهِ الى الصخور لكن الاركا ادركتهُ حالاً . كان بينها وبينهُ اكثر من مائة قدم فعبرتها بأسرع من لمح البصر وقابلها غاردنر ببندقيتهِ اطلقها في وجهها لكن الرصاص لم يصرفها عنهُ بل صدمت القارب صدمة زحزح الجبال فقلبتهُ ظهراً لبطن وهي تظن ان عدوها الكلب الذي كان يتبع عليها فخطفتهُ وسحقته سحقاً ثم سكت القارب وألحقتهُ بهِ ولم تتنبه الى غاردنر في اول الامر فسبح مسرعاً الى الصخر الذي امامه بكل ما فيهِ من القوة والنشاط وكان في الصخر نقرة عالية فوثب اليها وكانت الاركا قد فرغت من الكلب والقارب وأدارت نظرها فرأته لاثذاً بذلك الصخر فبادرت اليهِ كالقضاء المبرم فلطم جسمها الصخر لطمة عنيفة كادت تقضي عليها. ولما رأت انها لا تستطيع الوصول اليهِ لم تحاول الهجوم على الصخر مرة ثانية بل اكتفت بالسباحة امامه كأنها ديدبان قائم على حراسته

وكانت النقرة التي لجأ اليها غاردنر ضيقة تسعه واقفاً فمدَّ يديهِ الى ما فوقه لعله يجد شيئاً يتمسك بهِ ويصعد الى اعلى الصخر فلم يجد ولم يكن يعلم كم تبقى الاركا قائمة على حراسته ولا امل انها تنفك عنه قريباً لشدة ما رأى فيها من الغيظ ولانه لا يتسنى عليها ان تجد ما تتقوَّت بهِ من الطعام هناك . وكان هذا الصخر على نصف ميل من الشاطئ ولا يصعب عليهِ ان يقطع هذه المسافة سباحة ولكن كيف السبيل الى ذلك وعدوهُ امام ناكل قائمة له بالمرصاد. وكان الصخر متجهاً الى الشرق والشمس تضربهُ وقد سخنته حتى صار الوقوف في نقرته شاقاً جدًّا فأسقط في يد غاردنر وقال في نفسهِ ان الحر والعطش لا بد من ان يتغلبا عليهِ عاجلاً او آجلاً فيقع في فم عدوه رغماً عن انفه لكنه عاد فرأى ان الشمس كادت تميل عن الهاجرة ومتى مالت صار في الظل وقلت حرارتها فلا خوف عليهِ منها في بقية ذلك النهار والليل التالي ولكن كيف يكون شأنهُ متى اصبح الصباح واضطرَّ ان يقف في عين الشمس الى الظهر . فجعل يصلي الى الله لكي ينير قواه حتى تغطي السحب وجه الشمس ثم خطر له انه اذا اجيب طلبه فقد يشتدُّ النوء وتعلو الامواج فتصل اليهِ وتقتلعه

من مكانه فترك الصلاة وقال يفعل الله ما يشاء . وانقضى النهار وغابت الشمس وأشرق القمر وكان بدراً وبقيت الاركا على حراستها تسبح امام الصخر ذهاباً واياباً بلا كلل ولا ملل وخاف غاردنر ان يغلبه النعاس فينام ويقع في البحر فجلس حيث هو وادلى رجليه حاسباً ان الاركا قد تحاول الوصول اليه بغتة فتلطم بالصخر كما لطمت اولاً اما هي فدنت منه رويداً رويداً ونظرت اليه كانها تقيس المسافة التي بينها وبينه لكنها لم تفعل ما فعلته بالامس . واختفى القمر وراء الصخر وظهرت تباشير الصباح ثم صعدت ملكة النهار بركبتها الناربة ولسان حالها يقول اصبر على حر ناوي يا متكل الامهات . اما هو فنقش في جيبه فوجد خيطاً طويلا فخلع سترته وربطها بالخيط ودلاها الى البحر ليبلها ورأت الاركا ذلك فاسرعت اليه لترى ما هو فاعل فرفع السترة من الماء قبل ان وصلت اليها وانتعشت آماله لانه صار يستطيع ان يتقي حرارة الشمس والم العطش بما يمتصه جسمه من الماء

ولكن قضت التقادير أن زمان محنته لا يطول فانه سمع حينئذٍ صوتاً يدل على ان قارباً بخارياً ماراً وراء الصخر ولم يكن الا قليل حتى صار على مرأى منه فجعل ينادي باعلى صوته ويلوح بسترته فالتفت ربان القارب واذا هو يرى رجلاً في نقرة ذلك الصخر فدار الدفة ليدنو منه ولكنه لم يسر قليلاً حتى رأى الاركا فادرك الخطر قبل الوقوع فيه

وكان في القارب ثلاثة رجال فنادوا غاردنر قائلين ما الخبر فقال قتلت ابن هذا الوحش فسحق قاربي وتبعني الى هذا الصخر . فقال له الربان لا يتحرش بالقتال الا المجنون . فقال غاردنر اصبت ولكن سبق السيف العذل وقد مضى عليّ الآن عشرون ساعة واذا في هذا الحصار فخافوا الله وانقذوني . ووقف الرجال الثلاثة يتشاورون وبقيت الاركا في مكانها كأن هذا القارب وطوله اربعون قدماً تشة طائية على وجه الماء . ثم قالوا لغاردنر اصبر قليلاً حتى نأتي بمدفع الحيتان فان معنا هنا بندقية كبيرة ولكن ما هي لمثل هذا الحوت لا تا اذا لم نقتله بالطلق الاول اصابنا ما اصابك . فشكرهم وعادوا ادراجهم ثم رجعوا بعد ساعة ومعهم مدفع كبير سددوه الى الاركا واطلقوه عليها فوثبت من الماء ثم ارتعت فيه وجعلت تدور في دائرة ثم صدمت الصخر صدمة عنيفة كأنها ارادت ان تنتقم من قاتل ابنها قبل مفادرتها الحياة ولكنها غاصت في الماء لا تبدي حراكاً

والدنيا جهادٌ مستمرٌ حيوانات تأكل بعضها بعضاً ووالدات ترأم صغارها وتفتك بصغار غيرها والانسان سيد المخلوقات يفتك بها كلها لا يشفق ولا يرحم سنة الله في خلقه واذا نفينا الالم الجسمي عنها كما نفاه ولسي فهل يستطيع احد ان يقول ان تلك الاركا لم تكن تتألم اديًا كما تتألم الام الثاكل . حقًا ان في الخلق اسراراً لا ندركها وآيات غير بينات